الفصل الرابع
التشريع الإسلامي

* نعمة التشريع الإسلاميّ
* نعمة العدل
* الوسطيّة في الإسلام
* الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر

نعمة التشريع الإسلامي

القرآن هو كتاب الله تعالى الخاتم لبني البشر، نزل به الروح الأمين على قلب سيّد الأنبياء والمرسلين مصدِّقًا لما قبله من الكتب السماويّة والأنبياء والرسل، مكمّلًا بذلك دين الله الإسلام الذي ارتضاه لعباده أجمعين، ومتمّمًا بذلك نعمته على جميع خلقه من بعد، بما جاء به من أحكام وتشريع، فمن تمسّك به فقد فاز في الدنيا والآخرة، ومن شذّ عنه فقد ضلّ سواء السبيل. يقول تعالى: ﴿ **ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا** ﴾ **[المائدة: ٣].** وقد نزلت هذه الآية في حجّة الوداع، وهي آخر ما نزل من القرآن الكريم، وفيها إعلان لكمال الرسالة وتمام النعمة. ومع نزولها أحسَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدنوّ أجل الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد أدّى الأمانة وبلّغ الرسالة، واقترب الفراق، فبكى.

والإعلان عن كمال الرسالة وتمام النعمة يأتي في سياق آيات موضوعها تشريعي بحت، فيه إظهارُ الحلالِ والحرام، أي أنّ من أصول هذا الدين التمسّك بما جاء به الشرع الحنيف من قواعد والالتزام بالأوامر، والاجتناب عن النواهي، وفي كلّ ذلك نعمة من الله وفضل عظيم.

ولقد راعى التشريع الإسلامي عندما نزل، ثلاثة أمور أساسيّة [1]. أوّلها رفع الحرج عن الناس حيث يقول تعالى: ﴿ **مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ** ﴾ **[المائدة: ٦]**، ويقول أيضًا: ﴿ **وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ** ﴾ **[الحج: ٧٨]**. وثانيها راعى تقليل التكاليف على الناس، فجعل الصلوات خمسًا بدل خمسين، كما فرضت أولًا. يقول النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها، وحدّ حدودًا فلا تعتدوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رخصة لكم ليس بنسيان فلا تبحثوا عنها» [2]. وثالثها فقد راعى التشريع الإسلامي طباع

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامي. الشيخ محمّد الخضري. دار الكتب العلمية. ط٢، ١٩٩٤.

(٢) البيهقي، السنن الكبرى، كتاب الضحايا، باب ما لم يذكر تحريمه، ح (١٩٧٢٥)، ٢١/١٠.

الناس، فسنَّ التدرج في التحريم حتّى يكون ذلك أهون على النفس البشريّة. وتحريم الخمرة جاء على مراحل ثلاث: أوّلها إشارة إلى أنّ فيها إثمًا (أي ذنبًا) ومنافع للناس، ولكنّ الإثم أكبر من النفع، وثانيها، النهي عن الصلاة في حالة السكر، ليفقه المصلي قوله، وثالثها النهي الكامل والأمر بالاجتناب بشكل قاطع.

أمّا مصادر التشريع فهي القرآن الكريم والسنة النبويّة الشريفة، وأضاف جمهور العلماء إلى ذلك، الإجماع والقياس ومصادر أخرى تبعيّة.

ونعمة التشريع الإسلامي نعمة كبيرة واسعة. وهي تلحق المرء في ذاته وفي معاملاته مع الآخرين. وقد فصَّل علماء المسلمين، في كتب الفقه، أبواب التشريع الإسلامي عمومًا، وأفاضوا في الحديث عن الحلال والحرام، لما له من تأثير بالغ في حياة الإنسان ومسلكه، وعلاقاته مع الناس، ودوره في المجتمع.

يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «الحلال بَيّن والحرام بَيّن وبينهما مشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى المشبَّهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات كراعٍ يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه»[1].

وكما يقول العلماء: التخلية تكون قبل التحلية، أي أنّ اجتناب الحرام يتقدّم على إظهار الحلال، فإنّ الحديث عن نعم الله تعالى في تحريم الحرام هو الأولى والأهم. والحديث عن ذلك أيضًا يطول فنأخذ منه أمثلة يسيرة.

يقول تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ **[المائدة: ٣]**. وقد أثبت العلم الحديث أهمّيّة ذبح الحيوان كما أمر الإسلام، من

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، ح (٥١)، ١/٥٠ [واللفظ له].

شحذ للسكين، وإطعام للذبيحة وسقيها قبل سوقها للذبح، وإفراغ الدم من عروقها بعد الذبح وما إلى ذلك، وما مرض جنون البقر الذي انتشر في أوروبا مؤخرًا، إلّا بسبب إطعام الأبقار المخلّفات الحيوانيّة الممزوجة بالدم وغيره.

وكذلك فإنّ تحريم الزنى والشذوذ الجنسي، المتفشي حاليًا في المجتمعات الغربيّة عمومًا؛ قد ظهرت آثاره المخيفة في هذه المجتمعات من انتشار الأمراض الخبيثة واختلاط الأنساب. ففي أمريكا مثلًا بلغ عدد الشاذين جنسيًّا ١٧ مليون شاذّ وشاذّة. وارتفع عدد العائلات التي يمارس فيها زنى المحارم إلى عائلة من كلّ عشر عائلات، حسب جريدة «الهيرالد تريبيون» في عددها الصادر في ١٩٩٣/٦/٢٢، والأغرب أنّ ٨٥% من الذين يمارسونه هم من العائلات الناجحة في أعمالها[1]. كما بلغ انتشار الأمراض الخبيثة بسبب تفشي ظاهرة الزنى أرقامًا خياليّة، وخصوصًا في بعض الدول الأفريقيّة حيث تذكر بعض الإحصائيات أرقامًا تناهز الـ ٨٠%، وقد أعلنت منظمة الأمم المتحدة هذه المدن مدنًا موبوءة.

وكذلك فإن في تحريم الخمر والمخدِّرات وكلّ ما يُذْهِبُ العقل نعمة وعبرة لأولي الأبصار. فالعالم كلّه يشهد ما يعاني شباب اليوم في الغرب من هذه الأمراض، فرغم قيام العديد من المستشفيات والمصحّات بمعالجة الناس، وقيام العديد من الجمعيّات الأهليّة بحملات التوعية لردع الناس عن الوقوع في شرك هذه الموبقات، فإنّ انتشارها أصبح يهدد المجتمعات الغربيّة ويشكّل خطرًا كبيرًا عليها. وقد أظهرت دراسة حكوميّة بريطانيّة نشرتها مجلة التقوى في عددها ١٧٦ الصادر في آذار ٢٠٠٨ أن ٢٠% من طلاب المدارس الثانويّة يتعاطون المخدرات، فيما يتعاطى ٤% موادًا شديدة الخطورة مثل «الكوكايين».

وكشفت الدراسات أن ٢٥% من ٩٠٠٠ طفل - هم محلّ الدراسة - تتراوح أعمارهم ما بين ١١ - ١٥ عامًا، عرض عليهم الحشيش، فيما أقرّ ١٢% منهم أنّهم قاموا بتعاطيه.

---

(١) صحة الوطن من صحة الأسرة. الرابطة النسائية الإسلامية. دار المنى. ط١، ١٩٩٧.

وأشارت الدراسات إلى أنّ استعمال الكوكايين في هذه الفئة العمريّة تزايد من ١,٤% في عام ٢٠٠٤، إلى ١,٩% في عام ٢٠٠٧.

وبحسب فرانس برس، خلصت الدراسة إلى أنّ ٤% من طلاب المدارس الثانويّة يتعاطون نوعًا من أنواع المخدرات الشديدة مثل الكوكايين والهيروئين. وقال ٦% من الطلاب الذين تبلغ أعمارهم ١١ عامًا إنهم تعاطوا المخدرات، وذلك مقارنة بـ ٣% في العام الذي سبقه[١].

وكذلك تحريم الخمر، وقد سمَّاها أهل الحكمة «أم الخبائث». وقد جاء تحريمها في قول الله تعالى: ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [المائدة: ٩٠]، والأمر بالاجتناب أشد وأقوى من الأمر بالنهي عن شربها، أي إنّه أمر باجتناب القرب منها كما يقول علماء التفسير. وفي قصّة المرأة التي جاءت إلى الناسك لتستشيره في أمر مهم، عبرة وعظة بالغة حيث طلبت إليه أن يصطحبها إلى بيتها لتأخذ رأيه في أمر ضروريّ، فذهب معها، وقد نصبت له فخًا تريد له الوقوع فيه. فخيّرته بأن يزني بها أو أن يقتلها أو أن يشرب الخمر، وإلّا شهَّرت به وادَّعت عليه بالباطل. فقال في نفسه إنّ شرب الخمر هو أهون الشرور، فشربها حتى ذهبت بعقله، فزنى بها وقتل رجلًا رآه يفعل ذلك حتى لا يفضح أمره.

والنهي عن القتل في الإسلام زاجر وقوي، ويوجب القصاص بالمثل. يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وفي سورة المائدة يظهر القرآن الكريم فظاعة القتل الذي أسرف فيه بنو إسرائيل حيث يقول تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢]، ولذلك كان جزاء القاتل المتعمد القتل، يأمر به

(١) مجلة التقوى. العدد ١٧٦، آذار ٢٠٠٨.

ويُنَفِّذُه ولي الأمر: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ **[البقرة: ١٧٩]**.

قد يتعجب بعض الناس كيف يكون في القصاص حياة، وفيه قتل القاتل! ويغيب عن بالهم أنّ الحزم الذي أمر به النبيّ عليه الصلاة والسلام في قتل القاتل، وقطع يد السارق، وعدم التساهل بذلك، قد حفظ للناس حقوقهم وأموالهم وممتلكاتهم، فمن علم أنّ يده ستقطع إذا سرق، فلن يقدم على ذلك أبدًا، ومن تجرّأ على ذلك مرة فلن يستطيع أن يعيدها ثانية ولو أراد. ومن علم أنّ من يَقْتُل يُقْتَل فلن يتجرّأ على ذلك أبدًا، لأنّ في ذلك موته الأكيد. ولذلك كان في القصاص حياة لأولي الألباب، أي موت القاتل حياة للمجتمع، وقطع يد السارق حفظ لأموال الناس. وتؤكّد الإحصائيّات أنّ هذه الجرائم في الدول التي تطبّق القصاص في القتل والسرقة والزنى وتقيم الحدود فيها، هي أقلّ بكثير منها في باقي الدول.

نعمة العدل

العدل أي الإنصاف، وهو إعطاء المرء ما له، وأخذ ما عليه، أي إعطاء كلّ ذي حقّ حقّه. وهو أمر إلهي حيث يقول تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ [النساء: ٥٨]، والعدل اسم من أسماء الله الحسنى، وصفة من صفاته العلى.

وقد حفلت السيرة النبويّة والتاريخ الإسلامي عمومًا بنماذج من العدل، قَلَّ نظيرها في الحضارات الغربيّة على مر العصور، وتروي كتب السيرة جميعًا قصّة المرأة المخزوميّة التي سرقت أثناء فتح مكة، وأراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقيم عليها الحدّ ويقطع يدها، فتوسّط أهلُها أسامةَ بن زيد ليشفع لها عند رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فلما حدَّث أسامةُ النبيّ بذلك، تغيّر وجه الرسول عليه الصلاة والسلام وقال: «أتشفع في حدٍ من حدود الله». ثمّ قام فاختطب فقال: «يا أيّها الناس، إنّما أهلك الذين قَبْلَكُم أنّهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ. وايم الله، لو أنّ فاطمة بنت محمّد سرقت، لقطعتُ يدها»[1].

وفي عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، جاء رجل إليه، قال له: يا أمير المؤمنين، لقد تسابقت مع ابن عمرو بن العاص، والي مصر، فسبقته، فضربني بسوطه، وقال لي: أنا ابن الأكرمين. فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه: إذا أتاك كتابي فلتحضر إليّ ومعك ابنك، فلمّا حضرا أعطى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه السوط للرجل المصري ليضرب ابن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قائلًا له: اضرب ابن الأكرمين.

---

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود، ح (١٦٨٨/٨)، ١٣١٥/٣.

وذات يوم، اختلف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع يهودي في درع، فذهبا إلى القاضي وقال الإمام علي رضي الله عنه: «إنّ هذا اليهودي أخذ درعي، وأنكر اليهودي ذلك، فطلب القاضي من الإمام علي أن يحضر الشهود، فأحضر ولده الحسين، ولم يكن عنده شاهد آخر، فحكم القاضي بالدرع لليهودي. فتعجّب اليهودي كيف يحكم القاضي على أمير المؤمنين! فثارت حميَّته وقال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، إنها لَدرعُكَ، سَقَطَتْ عن جملٍ لك فالتقطتُها، أشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمّدًا رسول الله. فأعطاه الإمام علي رضي الله عنه الدرع فرحًا بإسلامه».

والعدل أساس الملك، فقد كتب أحد الولاة إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه يطلب منه مالًا ليبني سورًا حول عاصمة الولاية، فقال له عمر رضي الله عنه: «وماذا تنفع الأسوار؟ حصِّنها بالعدل، ونقِّ طُرُقها من الظلم».

فبالعدل تقوى دعائم المجتمع، ويأمن الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم. يحكى أنّ أحد الملوك أرسل رسوله لمقابلة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فدلّوه عليه، وكان نائمًا تحت شجرة، فتعجّب، كيف ينام هذا الحاكم من دون حرس! وقال له كلمته المشهورة: «عَدَلْتَ، فأمِنْتَ فَنِمْتَ يا عمر».

فالعدل يوفّر الأمان للناس جميعًا على حدّ سواء، ضعيفهم وقويّهم، فقيرهم وغنيّهم، حاكمهم ومحكومهم، ويحمي الحقوق والأعراض والأملاك، ويشيع الطمأنينة في المجتمع، وينفي الظلم عنه.

وقد حرّم الله الظلم تحريمًا شديدًا حيث يقول تعالى: ﴿ **فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ** ﴾ **[الزخرف: ٦٥]**، وفي آية أخرى: ﴿ **أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ **[هود: ١٨]**، كما حذّر النبيّ عليه الصلاة والسلام من الظلم، حيث يقول: «اتّقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة» [(١)]، ويقول عليه الصلاة والسلام في حديث قدسي، يرويه عن ربّ العالمين: «يا عبادي إني حرَّمتُ الظلم على نفسي،

(١) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح (٢٥٧٨/٥٦)، ١٩٩٦/٤.

وجعلته بينكم محرَّمًا فلا تظالموا»[(١)].

يقول الشاعر:

لا تظلمــنَّ إذا مــا كــنت مقــتدرًا فــالظلم تــرجع عقــباه إلــى الــندم

تــنام عيــنُك والمظلــوم منتــبهٌ يدعــو علــيك وعــين الله لــم تــنمِ

(١) مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ح (٢٥٧٧/٥٥)، ١٩٩٤/٤.

نعمة الوسطيّة في الإسلام

وصف القرآن الكريم الأمّة الإسلاميّة بأنّها أمّة وسط، حيث جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ووسطيّة الأمّة ليست وسطيّة في التشريع بين الحلال والحرام، فالحلال بيّن والحرام بيّن، إنّما هي سمة من سمات الأمّة الإسلاميّة بين التطرّف والغلوّ، وبين الإفراط والتفريط. وهي ليست مذهبًا أو فرقة، إنّما هي منهج فكريّ في الحياة، واعتدال في السلوك، بعيدًا عن الطغيان والإخسار، كما يقول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩ ﴾ [الرحمن: ٧ – ٩].

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يقول: «خير الأمور أوساطها» [١]. وعن ابن عباس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «إيّاكم والغلوّ في الدين، فإنّه أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدين» [٢]، وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنّه قال: «كنّا عند النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فخطَّ خطًّا، وخط خطَّين عن يمينه، وخطَّ خطَّيْن عن يساره، ثمّ وضع يده في الخط الأوسط، وقال: «هذا سبيل الله» ثمّ تلا هذه الآية: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] [٣]، وقال عليه الصلاة والسلام: «هلك المتنطّعون» [٤] وكرّرها ثلاثًا، لخطورة ما تحمله من معنى. والمتنطّعون هم المتشدّدون والمبالغون في الأمور بما يخرجهم عن حدِّ الوسط. ويروى عن بريدة الأسلمي رضي الله عنه، قال: خرجت ذات يوم أمشي لحاجة، فإذا أنا برسول الله

---

(١) البيهقي، شعب الإيمان، الثاني والأربعون من شعب الإيمان وهو باب الاقتصاد في النفقة، ح (٦٦٠١).

(٢) ابن ماجه، السنن، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، ح (٣٠٢٩)، ١٠٠٨/٢.

(٣) ابن ماجه، السنن، ح (١١)، ٦/١.

(٤) مسلم، الصحيح، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ح (٢٦٧٠/٧)، ٢٠٥٥/٤.

صلّى الله عليه وسلّم يمشي فظننته يريد حاجة، فجعلت أكف عنه فلم أزل أفعل ذلك حتى رآني فأشار إليّ فأتيته فأخذ بيدي فانطلقنا نمشي جميعًا، فإذا نحن برجل بين أيدينا يصلّي يكثر الركوع والسجود، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «أترى يراني؟» فقلت: الله ورسوله أعلم. قال: فأرسل يده وطقّ بين يديه ثلاث مرّات يرفع يديه ويصوّبهما ويقول: «عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا، عليكم هديًا قاصدًا، فإنه من يشادَّ هذا الدين يغلبه»[١].

وقد فسّر ابن القيم الجوزيّة الوسطيّة في كتابه «مدارج السالكين» بأنّها: «تجري وراء الحقّ عند أيّة طائفة، فتأخذه، ولا تعاديها بسبب ما عندها من الباطل، وتضيف الحق الذي تقتبسه من هنا وهنالك إلى شخصيّتها، ويكون صاحبها كالحاكم العادل الذي يشهد على الطائفتين ويمتحن الحقّ بينهما».

ولقد عرَّف العلامة الدكتور يوسف القرضاوي معالم الفكر الوسطي بأنّه يتميز في موقفه المعتدل من قضايا كبيرة مهمّة[٢]:

«فهو وسط بين دعاة المذهبيّة الضيقة، ودعاة اللامذهبيّة المفرطة.

وسط بين أتباع التصوّف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوّف، وإن التزم واتبع.

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرّر.

وسط بين المحكِّمين للعقل: وإن خالف النصّ القاطع، والمغيِّبين للعقل، ولو في فهم النصّ.

وسط بين المقدِّسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر، والمُلْغين للتراث، وإن تجلَّت فيه روائع الهداية.

---

(١) ابن خزيمة، الصحيح، كتاب الصلاة، باب الأمر بالاقتصاد في صلاة التطوع، وكراهة الحمل على النفس ما لها تطيقه من التطوع، ح (١١٧٩)، ١٩٩/٢.

(٢) موقع تغريب. الوسطية والاعتدال. د. يوسف القرضاوي www.taghrib.org

وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية، والمهملين للسياسة كلّيّة بدعوى التربية.

وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها، والغافلين عنها، حتى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها.

وسط بين المستغرقين في الحاضر الغائبين عن المستقبل، والمبالغين في التنبّؤ بالمستقبل، كأنّه كتاب يقرؤونه.

وسط بين المقدّسين للأشكال التنظيميّة كأنّها أوثان تعبد، والمتحلِّلين من أي عمل منظّم كأنّهم حبّات عقد منفرط.

وسط بين الغلاة في إطاعة الفرد للشيخ والقائد، كأنّه الميت بين يدي الغاسل، والمسرفين في تحرّره كأنّه ليس عضوًا في جماعة.

وسط بين الدعاة إلى العالميّة دون رعاية للظروف والملابسات المحليّة، والدعاة إلى الإقليميّة الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالميّة.

وسط بين المسرفين في التفاؤل، متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين في التشاؤم، فلا يرون إلّا الظلام، ولا يرقبون للظلام فجرًا.

وسط بين المغالين في التحريم، كأنّه لا يوجد في الدنيا شيء حلال، والمبالغين في التحليل، كأنّه لا يوجد في الدين شيء حرام.

وسط بين الذين ينكرون الإلهام مطلقًا، فلا يعترفون بوجوده، ولا بتأثيره... والذين يبالغون في الاعتداد به، حتى جعلوه مصدرًا للأحكام الشرعيّة.

وسط بين دعاة الفلسفة «الليبراليّة» التي تعطي الفرد وتضخّمه على حساب المجتمع... ودعاة الفلسفة الجماعيّة «الماركسيّة» التي تعطي المجتمع وتضخّمه على حساب الفرد.

وسط بين دعاة الثبات، ولو في الوسائل والآلات... ودعاة التطوّر، ولو في المبادئ والغايات.

وسط بين دعاة التجديد، وإن كان في أصول الدين وقطعيّاته... ودعاة

التقليد وخصوم الاجتهاد، وإن كان في قضايا العصر التي لم تخطر ببال السابقين.

وسط بين الذين يهملون النصوص الثابتة، بدعوى مراعاة مقاصد الشريعة... والذين يغفلون المقاصد الكليّة، باسم مراعاة النصوص.

وسط بين دعاة الغلوّ في التكفير، حتى كفّروا كلّ المسلمين المتدينين... والمتساهلين فيه، ولو مع صرحاء المرتدّين»[١].

من هذه المعالم الجامعة للفكر الوسطي، ندرك أنّ الوسطيّة التي دعا إليها الإسلام ليست في العبادات والالتزام الديني فقط، بل هي منهج حياة وسلوك في السياسة والاقتصاد، في الأخلاق والمعاملات، وفي الثقافة والفكر وغيرها.

يقول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: «والله لو أنَّ بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، إذا شدّوها خلَّيتها، وإذا خلَّوها شددتها». فذهبت «شعرة معاوية» مضربًا للأمثال. وكان يقول أيضًا: «لا ينبغي أن يساس الناس بسياسة واحدة، باللين فيمرحوا، ولا بالشدّة فيُحمل الناسُ على المهالك». وكما يقول أهل الحكمة: «لا تكن صلبًا فتُكْسَر، ولا لينًا فتُعْصَر».

وما الأخلاق الحميدة التي دعت إليها جميع الأديان السماويّة إلّا وسطٌ بين رذيلتين: فالتواضع وسط بين الذلّ والتكبّر، والقوّة وسط بين الضعف والعنف، والاقتصاد وسط بين البخل والإسراف، والشجاعة وسط بين الجبن والتهوّر، والرفق واللين وسط بين الضعف والغلظة، والمداراة وسط بين المداهنة والتشهير، والإسرار بالنصيحة وسط بين السكوت عن الحقّ والفضيحة، وهكذا دواليك.

ومن ثمرات الوسطيّة أنّها تؤمن بالتعدّديّة، وأنّها تسعى دائمًا لتحقيق الوفاق والتعايش وقبول الآخر والحوار مع الجميع والانفتاح عليهم، دون إفراط في السعي إلى الأهداف، أو تفريط في المبادئ والقيم. ومع مراعاة الواقع، والتفريق بين الثابت والمتغيّر، والأصول والفروع، وفهم الأولويّات.

---

(١) موقع تغريب. الوسطية والاعتدال. د. يوسف القرضاوي www.taghrib.org

وإذا ما التزمت الأمّة الإسلاميّة بهذه المبادئ وعملت بها، تحقّقت لها الوسطيّة بين باقي الأمم، وكان لها بحقّ أن تكون شاهدة عليهم، وعلى مسيرتهم وعلى حضارتهم. فوسطيّتها دليل قربها من الجميع، من دون تفريط في هويتها أو إفراط في تَزَلُّفِها إلى الأخرين. ووسطيّتها توجب عليها الإقرار بالصواب عند غيرها من الأمم، والتفاعل معه من دون جحود أو نكران أو انحراف، كما توجب عليها الشهادة على الباطل واجتنابه، من دون اعتداء أو تسفيه أو تمويه. كما توجب الوسطيّة على الأمة الإسلاميّة باستمرار، أن تأخذ من الأصالة المجيدة، وتاريخها الحافل، ما يناسب الزمان والحاضر، ومن الحداثة والعلوم العصريّة، ما يواكب مسيرة الحضارة والتقدّم، من دون التخلي عن المبادئ والأصول الثابتة.

نعمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نعمة من نعم الإيمان بالله، وهو واجب شرعي، أمر به الإسلام وحضّ عليه حيث يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. ذلك أن طبيعة الإنسان تجعله ينساق لشهواته ونفسه الأمّارة بالسوء، فينسى أحيانًا، ويجنح أحيانًا أخرى. ورغم كلّ ما شرع الله من محفّزات للخير، ومن تواصل للعبد مع ربّه في صلواته ودعائه، تبقى الحاجة ماسّة إلى تصويب ممارساته وتذكيره بالنعم، وحثّه على الخير والشكر، ونهيه عن المنكر والشرّ. ولقد صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بقوله في الحديث الشريف: «الدين النصيحة»[1]

والدعوة إلى الله يجب أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، ولقد قيل: «ليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر». لذلك وجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون ذا حجّة بالغة ورأي رشيد، مدركًا ما ستكون عليه نتيجة دعوته، مقدّمًا المصلحة الراجحة على المفسدة الممكنة. يقول سفيان الثوري: «ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون رفيقًا في ما يأمر به، رفيقًا في ما ينهى عنه، عدلًا في ما يأمر به، عدلًا في ما ينهى عنه، عالمًا بما يأمر به، عالمًا بما ينهى عنه»، كما عليه أن يبدأ بنفسه أوّلًا أي عاملًا بما يأمر به، منتهيًا عمّا ينهى عنه، كما يقول الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الصف: ٢ - ٣]، ويقول أيضًا: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ [البقرة: ٤٤]، ويقول أحد العلماء: «إنّ مثل

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ح (٥٥/٩٥)، ٧٤/١.

الذي يعظ الناس وينسى نفسه، كالمصباح يحرق نفسه ويضيء لغيره».

والنهي عن المنكر درجات، حيث يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[(١)]. وقد سئل حذيفة رضي الله عنه عن ميّت الأحياء فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده، ولا بلسانه ولا بقلبه.

واختلاف الدرجات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعود إلى صفة الآمر والناهي، فإن كان ذا سلطان فعليه أن يستعمل سلطانه الذي أنعم الله به عليه في أمره ونهيه، فيصدر القوانين الرادعة، ولا يتهاون في تطبيقها، يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج: ٤١]، وهذا هو المقصود بتغيير المنكر باليد.

أما التغيير باللسان، فعلى الآمر والناهي أن يكون داعية بحقّ، عالمًا وعاملًا بما يدعو إليه، كما في قول سفيان الثوري.

أما التغيير بالقلب، فهو أن يستنكر المسلم المنكر ويستهجنه في ذاته، فلا يقعد مع الذين يخوضون في المعاصي، بل يتجنّبهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وهذا هو أضعف الإيمان: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٠].

ويقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثمّ يقدرون على أن يغيّروا ثمّ لا يغيّروا إلّا يوشك أن يعمّهم الله منه بعقاب»[(٢)]، وفي حديث آخر: «... كلا والله لتأمرون بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ح (٤٩/٧٨)، ٦٩/١.

(٢) أبو داود، السنن، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ح (٤٣٣٨)، ص ٦٨١.

يدي الظالم ولتأطرُنّه على الحق أطرًا، ولتقصُرُنَّه على الحقّ قصرًا»[١]. لذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا شرعيًا على كلّ مسلم، وتركه هلاك للقوم جميعًا. أمّا إن قام به من أدركه وقدر عليه ضمن استطاعته، ولم يستجب له قومه فيكون قد قام بواجبه، فينجو برحمة الله، ويعذّب الله الآخرين بفسقهم. يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

وعن زينب ابنة جحش رضي الله عنها (زوجة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم): أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم استيقظ من نومه وهو يقول: «لا إله إلّا الله، ويل للعرب من شرّ قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه - وعقد سفيان بيده عشرة - ، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»[٢].

كما تجدر الإشارة إلى أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يكون موجّهًا، ليس فقط إلى عامّة الناس، بل وإلى خاصّتهم من مسؤولين وحكّام ومعاونين، فالنصيحة للخاصّة قد تكون أكثر فعاليّة في المجتمع وأجدى أثرًا فيه لما خصّهم الله به من حكم وسلطان. يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «ألا وإنّ أفضل الجهاد كلمة حقّ عند سلطان جائر»[٣].

ممّا لا شكّ فيه أنّ فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عديدة، وأهمّها ما ذكره الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز حيث يقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ

---

(١) أبو داود، السنن، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ح (٤٣٣٦)، ص ٦٨١ [وهو جزء من حديث].

(٢) - مسلم، الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، ح (٢٨٨٠/١)، ٢٢٠٧/٤.

- البخاري، الصحيح، كتاب الأنبياء عليهم السلام، باب قصة يأجوج ومأجوج، ح (١٥٠٢)، ٥٩٤/٤.

(٣) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الفتن والملاحم، ح (٨٥٤٣/٢٥١)، ٥٥١/٤.

﴿تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويمكن القول في تفسير هذه الآية إن الله عزّ وجلّ ربط خيريّة هذه الأمّة على باقي الأمم في قيامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك كان تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الآية. وهو ليس تقديم تفضيل بل تقديم ربط المعنى، وتكامل، إذ إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يفقد معناه ومغزاه من دون الإيمان بالله، الذي يبقى هو الأساس دائمًا.

ومن فضائل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تصويب الفرد والمجتمع في المسار والأداء والأخلاق والعلم والتماسك والوحدة حتى يكون التطوّر والنموّ متجانسين مع الفطرة البشريّة، والهدف الأسمى في الحياة وهو عمارة الأرض. وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تنبيه للخاملين، وصحوة للشاردين، وقوة للمستضعفين، وأمان للخائفين، ويقين للمشكّكين، وثبات للمؤمنين، ودعوة دائمة في المجتمع إلى الحقّ والدين.